Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والميت، والصلب والمائع، والإنسان والحيوان. وهكذا كان للجبل قنة ورأس وحضن ورجل وكاهل وابنة... كما كان للإنسان قنة ورأس وحضن وكاهل وابنة، وكان إذا ذكرت قنة الجبل أو قنة الإنسان تداعت إلى الفكر بقية الأجزاء الأخرى أعاليها أو أسافلها. وكان أن صار سيد القوم جبلاً، وعالمهم جبلاً، والضخم من الناس جبلاً، والمرأة الفارعة جبلاً، والداهية ابنة الجبل...

إذا كانت المقابلة والمجاورة تفرضان نفسهما بقوة التجربة الجسدية وتفاعل الفكر مع أثاث العالم فإن المماثلات والمشابهات تطرح إشكالاً كالتالي: هل المشبه به هو الإنسان ثم نقلت أسماء أعضائه إلى أعضاء الجبل أم أن العكس هو الصحيح إذا انطلق الإنسان من أعضاء جسده ليسمي بها أعضاء الجبل؟ إن حل هذا الإشكال ليس من السهولة بمكان، إذ يتوقف الحل أو شبه الحل على دراسات إناسيةٍ وأركيولوجية وتاريخية معمقة؛ على أنه إذا كان من المؤكد أن الظواهر الطبيعية سابقة على الإنسان، فهل يبنى على هذا السبق أنه وقع تسميتها قبل أن يسمي الإنسان أعضاء جسده، ومن ثمة يستنتج أن بعض التسميات الأساسية نقلت من الجبل إلى الإنسان كرأس الجبل وحضنه ورجله وأنفه وخياشيمه. من الممكن أن يفترض أن مظاهر الطبيعة ومنها الجبل بقيت غفلاً بدون تسمية إلى أن منحها الإنسان أسماء أعضاء جسده؛ وقد يتعزز هذا الافتراض بأننا نجد بعض أسماء الجبل تسمى باسم بعض الحيوانات، فالصخرة الشماء في رأس الجبل وَعِلٌ، وحيودُ الجبل طرائق في قرون الوعل، والقطعة من الجبل قَرْنٌ؛ وهذا الافتراض هو ما تُثْبتهُ الدراسات النفسانية اللغوية حديثاً كما رأينا عند حديثنا عن المستوى القاعدي.

ومهما كانت صعوبة البت في هذا الإشكال فإننا نخرج بنتيجتين لا مراء فيهما؛ أولاهما: أن هناك تفاعلاً بين مظاهر الطبيعة وبين الكائن البشري، هِيَ تُقَدِّمُ «الواقع» وهو يؤول «الواقع» بتسميته، وثانيتهما أن عمدة التفاعل وأساسه هو المماثلة والمشابهة والمقابلة والمجاورة مهما كانت الفرضية التي يُنْطَلقُ منها؛ فإذا ما قيل: /الإنسان جبل/ فقد اتخذت بنية الجبل النموذج الأمثل لرد كل عضو من بنية الإنسان إلى مُماثِلِهِ أوْ مُشَابِهِه؛ وأما إذا قيل: /الجبل إنسان/، فإن الإنسان اتّخِذَ نَمُوذَجاً أمْثَلَ لِتُرَدَّ إلى أعضائه أعضاءُ الجبلِ، وفي الحالتين كلتيهما وقع **التعبير عن مجال دلالي بلغة مجال دلالي آخر**. وما قلناه في هذا المثال ينطبق على كثير من مجالات الظواهر الطبيعية والنظريات المختلفة[1].

(1) انظر، محمد مفتاح، **مجهول البيان**، الباب الثاني.